الطاوية

الطاوية:

مجموعة مبادئ، تنقسم لفلسفة وعقيدة دينية، مشتقة من المعتقدات الصينية الراسخة القدم. من بين كل المدارس العقلية التي عرفتها بلاد الصين، تعتبر الطاوية الثانية من حيث تأثيرها على المجتمع الصيني بعد الكونفشيوسية.

تعريب الكلمة: الهدي، الطريقة أو الطريق، الذي يسلكه أتباع الديانة، اسمهم المهديون أتباع الهدي، وديانتهم الهداية.

تمهيد:

حين بدأت الديانات الإبراهيمية (يهودية، مسيحية، إسلام)، بدأ أتباع الهدي من الأسفل إلى العالم العلوي. راقب قدماء الصينيين الإنسان ببساطة، ثم جردوه من غلافه للمقارنة بينه وبين الحيوان، فظهر جليًا أن الأشياء الحية المتطورة لها أصلان، ذكري وأنثوي، متضادان، متحدان (الأنثوي واليانغ الذكري)، منبعهما شيء له صفتان، غموض أنثوي ونشاط ذكري، أصل كل الأنواع على الأرض وغيرها، التاو، طاو، أو الهدي كما يعربه البعض.

لو كانت فرصة، للاحظ القدماء أن البكتيريا تتواصل أيضا، بأعضاء شبه تناسلية، مع أنها تعتبر الكائنات البدائية.

تقديم:

الطاوية، بالمعنى المتداول اليوم، تشمل تيارين أو مدرستين متباينتين: مدرسة فلسفية، نشأت أثناء الفترة الكلاسيكية لحكم سلالة «تشو» في الصين، المدرسة الثانية عبارة عن مجموعة من معتقدات الدينية، طورت خمسمائة سنة بعد المدرسة الأولى، وفي ظل حكم سلالة «هان».

يطلق اليوم على هاتين المدرستين:

* الطاوية الفلسفية.

* والطاوية الدينية. على التوالي.

نشأت المدرسة الأخيرة بعد ظهور أحد الحكماء واسمه «لاو-تسه»، قام الأخير بإملاء تعاليمه على أحد المنتسبين إلى المدرسة الطاوية الأولى وهو «تشانغ داولنغ»، وقعت هذه الأحداث في جبال السيشوان، ويؤرخ البعض أحداثها سنة ١٤٢ بعد الميلاد. على الرغم من التأثيرات ذات الطابع الديني والمأخوذة من المعتقدات القديمة للأهالي، الديانة الشامانية، الكهانة أو الشعوذة، على رغم كل هذه التأثيرات استطاعت المدرسة الطاوية الفلسفية الحفاظ على نفسها، في نفس الوقت شقت الديانة الطاوية لنفسها طريقًا وسطًا، ويتجلى تأثيرها أكثر في الثقافة الشعبية الصينية.

مصطلحات:

قد تلاحظ أن التسمية العربية للفلاسفة الصينيين لها نفس مشاكل التسمية في لغات أخرى، فتشوانغ تسو مثلا، هو شوان زي، حين يسمى بالإنجليزي .

النشأة:

ظهرت وتطورت المدرسة الطاوية الفلسفية أثناء الانتعاش الفكري الذي صاحب فترة حكم سلالة «تشو»، عرفت الفترة ظهور العديد من المدارس الفلسفية، كانت تتنافس مع بعضها حتى تحظى بشرف تقديم النصائح للحكام (في المقاطعات)، حول الكيفية الأمثل حتى يحيوا حياة أفضل وحتى يحسنوا تسيير الأمور في عالم تتسارع فيه وتيرة التغيرات السياسية والاجتماعية.

تدعـو هذه المدرسة إلى احـترام الذات والانعـزال عن الحيـاة العامـة، تفرعت هذه المبادئ عن التقاليد الصينية القديمة للتصوف والعبادة التأملية والتي ارتبطت باليوغا. قـام الفيلسوف «تشوانغ تسو» بتـطوير هذه المبادئ في نهاية القرن الـرابع قبل الميلاد.

التعاليم:

يمكن العثـور على تعاليم ومبادئ المدرسـة الطاوية الفلسفيـة بيت دفتي اثنين من أهم المصنفات: الأول وهو الـ «داوديجنغ»، ألفه «لاوتسو» في القرن الـثـالث ق.م.، المصنف الثاني أو الـ«تشـوانغ تسو»، ويضم مـجمـوعة من الأمثال والمواعظ، صنفه «تشوان غتسو» في نفـس الفترة السابقة تقريبا (القرن الـثالث ق.م.).

حـتى يكون الإنسـان في حـالة تناغـم مع الـ «طاو»، وجب عليـه أن يمارس الـ «لا فعل» «وو واي»، أو على الأقل اجتناب كل الأفعال الناتجة عن الغصب (الإجبار)، الاصطناع أو الغير خاضعة للطبيعية.

عن طريق التناغم التلقائي مع نزوات طبـيعته الذاتية الأسـاسية، وترك كل المعارف العلميـة المكتسبة، يتحد الإنسان مع «الطاو» ويـستخلص منه قوة غامضة «دي»، بفضل هذه القوة يستطـيع الإنسان تجاوز كل المستحيلات على ذوي البشر العاديين، على غرار الموت والحياة.

اعتبرت المدرسـة الطاوية المبكرة هذه القوى بأنها سحرية، فيمـا اعتبرها كل من «لاوتسو» «وانغ تسـو» قوى ناتجة عن أهليـة الشخص «اسْتِحْـقاق»، وعوامل الطبيعية والتلقائية.

انتقد «تشـوانغ سو» ما كان يذهب إليـه كل من «كونفيشـيوس» وأتباع مـدرسـة «موتسـه»، من أن الحكمـة الإنسـانيـة وحـدها يمكن أن تقـود إلى

استكشاف الـ «طاو»، كان يعتقد أن التمييز «الذاتي، التلقائي» للأفكار التصورية هو المسؤول عن انفصال الإنسان عن الـ «طاو».

على الصعيد السياسي، دعا أتباع الطاوية إلى العودة لنمط الحياة الفلاحية البدائي. في كتاب الـ «داوديجنغ» ينطبق مبدأ الـ«لا فعل» على الحُكام أيضا على غرار محكوميهم، فلا يترتب عليهم أي فعل حتى يضمنوا أنهم ورعيتهم يعود كل طرف بالمنفعة على الآخر. إلا أن «لاو-تسه» كانت له مآخذ على بعض الآراء السطحية لـ «تشانغتسي» كان الأول ينصح الحكام بأن يعملوا حتى تكون بطون الرعية ملآنة فيما تكون عقولهم خاوية، كان يرى أن الجهل يؤدي إلى نزع الرغبة في نفوس الناس.

كان «لاوتسو» يقارن الأفراد من أبناء الشعب بكلاب القش التي تستعمل في مراسيم الأضاحي، كان يتم مراعاتهم قبل موعد الطقوس، ثم يتم رميهم والتخلص منهم بمجرد انتهاء هذه المراسيم. كان النظام المثالي في رأي «لاو-تسه» هو النظام الشمولي الذي يقوده ملك ـ فيلسوف، أما الرعية فيجب أن تكون مسالمة ومطاوعة لأقصى درجة لهذا الحاكم.

ترك هذا الأخير أثرًا بالغًا في إحدى المدارس الفلسفية ذات التوجهات الشمولية، والتي أنشأها «هان فاي تسي».

على عكس «الكونفشيوسية» والتي كانت تدعو الفرد إلى الانصياع إلى النظام التقليدي، كانت مبادئ الطاوية تقوم على أنه يجب على الإنسان أن يهمل متطلبات المجتمع المحيط، وأن يبحث فقط على الأشياء التي تمكنه من أن يتناغم مع المبادئ المؤسسة للكون، أو «طاو» (طريق).

يقول «مينغ-تسي» (من أتباع المدرسة الكونفشيوسية) وهو يصف أتباع «لاوتسو»: «لن يضحوا ولو بشعرة إذا توجب ذلك لإنقاذ العالم».

تطور فلسفة الهدي مع ظهور الكونفوشية

الـ «ين واليانغ» في الـتايجيـتو، شعـار الفلسفة. عـرفت الصين خلال تاريخـهـا (تاريخ الصين) اضطرابات عـديدة وشـديدة (الممالك المـتحـاربة، انقـلابات على أنظمة)، جـعل فلاسـفة تلك المرحلة في عـودة إلى الماضي، مستلهمة البساطة، السكينة، من سذاجة الناس، راجية الإبقاء على الأمور في حالة سكون، تفاديًا للفوضى.

نقرأ كيف أن «لاوتسو ـ وتشوانغ سو» انتقدا في كتاباتهما، نهم الإنسان نحو العلم والتطور، آخذين عليه إهمـاله للسكينة ووداعة العيش. هذه النظرة لامت أيضا «كونفوشـيوس» وأتباعه في سيرهما نحو نزع الأمـية من المجتمع الصيني، وسعيه الحثيث في تغيير السياسيات المطبقة.

مع هذا، اعترف «كـونفوشيوس» نفسـه بأنه على الهدي، على الطاوية القديمة، هذا ما دفع«كسون زي» أحد أتباع «كونفوشيوس»، للمزج بين الهدي كالطريقـة الأولى والواحدة، وبين الكونفـوشية (كـونفشيـوسيـة) التي تدعو للتطور.

قال «كسون زي»، في كتاباته: كل شيء يتغير، تماما مثل الهدي، الذي هو في تغيـر دائم. وأعطى مثالاً، حـيث يطالَب أتباع الهـدي بالمحافظة على الصحة الجسمية والعقلية، وقارنها بالطبيب المهدي الذي يسعى حثيثا في بحث حول أنجع الأدوية تفاديًا للأمراض.

ظهر بعدها أن الكونفوشية، مجرد نهج في طريق الهدي، وأن الهدي، هو أساس الفلسفة أخيرًا.

• • •